تاريخ الاسر المارونية[1]

تأليف المؤرخ اسطفان البشعلاني

٣ ـ مؤرخو الاسر المارونية

لما فيما سبق ان قد شاع وذاع وجود مجموعات تاريخية مخطوطة في اصل الاسر المارونية لستة من المورخين . فيجدر بنا ان نذكر ما عرفناه بعد البحث والتنقيب عن كل واحد منهم لكي يقف القراء على حقيقة امرهم وصحة ما ينسب اليهم مما لا يزال مجهولاً . ثم نذكر بالايجاز لمحة من اخبار المشتغلين بتاريخ الاسر اللبنانية وما اتصل بنا من اعمالهم التاريخية، ولا سيما الذين حاولوا ان يؤلفوا قاموساً عاماً في تاريخ الاسر اللبنانية.

١ ـ القس جرجس هارون الاهدني

ورد ذكر هذا الكاهن في كتاب نشره ابرهيم ابو سمرا غانم تحت اسم مستعار « خليل همام فايز » يتضمن ترجمة حياة والده ابي سمرا البطل اللبناني ، وذلك في الصفحة ٣١٥ من كتابه هذا عند ذكر نسب بيت غانم قال « ورد نسب هذه العائلة في كتاب خط مجموعة فيه انساب بعض العيال في لبنان ، يعزى الى القس جرجس هارون الاهدني اللبناني ، وضعه في القرن السابع عشر نقلاً عن مجموعات خطية ولسانية ومحلية . وقد عُرضت هذه النسبة على العلّامة بولس مسعد البطريرك الانطاكي الماروني سنة ١٨٧٥ فقال انها راجحة الاسناد ، وكان رحمه الله حجة المحققين في تواريخ وانساب العائلات اللبنانية . ومما افاده القس جرجس المذكور في نسب عائلة غانم ان جدها الاكبر كان موسى غانم ابن المقدّم سعاده اللحفدي ، وقد لُقب بغانم نظراً لفوزه وغنمه في موقعة جبيل التي جرت بين المقدّمين الموارنة والمقدمين المسلمين في اول القرن الرابع عشر سنة ١٣٠٣م وكان النصر فيها لمقدمي الموارنة كما رواه المطران تادرس المعاقوري

(١) راجع المشرق ٦٥ : ١ (٤٠١) .

والمطران جبرايل القلاعي اللحفدي الذي قيل عنه انه كان ابن غوريه من بيت غانم في لحفد المولود سنة ١٤٤٩ والمتوفى سنة ١٥١٦ م » انتهى بحروفه .

فالقس جرجس مارون الذي تنسب اليه هذه المجموعة قد ذكره البطريرك اسطفان الدويهي في حوادث سنة ١٦١٤ وانه ارتقى فيها الى اسقفية قبرس. وقد اوفده الامير فخر الدين المعني الثاني غير مرة سفيرًا لدى الكرسي الرسولي وملوك اوربا بشأن احتلال جزيرة قبرس وحماية الشواطئ اللبنانية من الاسطول العثماني . ونشر صديقنا المؤرخ المحقق الخور اسقف بولس قرالي في كتابه «الامير فخرالدين المعني ودولة توسكانا» تقارير في غاية الاهمية قدمها المطران جرجس المذكور للملوك اوربا والبابا بهذا الخصوص . على ان المؤرخين قديمًا وحديثًا لم يذكروا لهذا الاسقف تاريخًا ، ولا نعلم ان احدًا نقل عنه شيئًا مما عزي اليه من تاريخ الامير. والذي نقله عنه ابرهيم ابو عجرا لا يستدل منه على محل وجود المرجع ليمكن مراجعته ومعرفة صحة ما ورد فيه .

هذا وان المخطوطة المذكورة الوارد فيها ذكر اسماء جدود الموارنة الابطال ووقائعهم وانساب اسرهم هي على جانب عظيم من الاهمية . فكيف اتصلت هذه الاخبار بعلم القس جرجس مارون دون غيره ، وقد حدثت قبل عصره بثلاثمائة سنة . وكيف فات ذكرها العلّامة الدويهي والسمعانية وغيرهم من علماء الموارنة الذين راينا هم يجوبون البلاد ويتجشمون الاسفار البعيدة في طلب المخطوطات ، ويبحثون عن الاثار والاخبار التي هي اقل اهمية مما ورد في المخطوطة المشار اليها . وكيف غابت عن علم المؤرخ النسّابة البطريرك بولس مسعد الذي عرضت عليه هذه النسبة فافتى بصحتها . وانما راجعة الاسناد . ولم يأتِ على ذكرها في تآليفه ، وليس في مذكراته واثاره الباقية ما يشير الى المخطوطة وما فيها ، مع انه كان يعنى كل العناية بمثل هذه الامور . والذي نظنه ان هذا من الاخبار التي تروى عن لسان البطريرك بولس مسعد دون تحقيق ، ولذلك فلا يصح ان يكون دليلًا على وجود هذه المخطوطة .

ومن غريب ما يذكر في هذه المناسبة ان احدهم وضع كراساً عن جامعة « اسرة ضو » التي يقول ان اسرته تنتمي اليها ، ومن جملة المراجع التي لجأ اليها لاثبات كون موسى غانم هو جد اسرة غانم احد فروع بيت ضو ، رواية

ابرهيم ابي سمرا التي ذكرناها . لكنه بدلاً من ان يذكرها كما هي ويذكر مرجعها فقد استبدل القس جرجس مارون الاهدني المعروف بشخص وهمي وغير وارد ولا معروف هو « القس مارون البشراوي » وزاد على الاصل كلمة غسّاني مفاخراً « بانه يمت بنسبه الى موسى غانم الغساني المنشأ . . . »

واغرب من هذا ان واضع كتاب «اصدق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة من اخبار السريان» الذي يزعم فيه ان اهم الاسر المارونية متحدرة من السريان اليعاقبة ، قد تبنى رواية صاحب الكراس المذكور دون تحقيق زاعماً انه لما كان موسى غانم جد بيت ضو وسلود وغانم من بني غسّان ، والغساسنة كانوا قاطبةً يعاقبة ، فبنو ضو الموارنة وفروعهم اصلهم اذاً يعاقبة . فانظر كيف يتصرفون بالتاريخ كلٌ على هواه فيزيدون وينقصون ويحرفون الشواهد ، ولا يذكرون المراجع الموثوق بصحتها لاثبات اصل الأسر فتضيع الحقائق وتكثر الاوهام ، وما آفة الاخبار الّا رواتها (راجع كتاب « الموارنة في لبنان » للمرحوم الخورسقف يوسف قرالي ص ١٢١).

٣ - القس يوسف اسكندر القرطباوي

نشر الاب غسطين سالم السخن القرطباوي الراهب اللبناني سنة ١٩٣٩ كتاباً يتضمن ديوان اشعاره ، واحقه بنبذة تاريخية في اصل اسر بلدته قرطبا نقلها على قوله سنة ١٩١٢ عن كتاب مخطوط يدعى « رفيق الواعظ » لواضعه القس يوسف اسكندر القرطباوي الاصل . ويقول ان هذا المخطوط من جملة المخطوطات التي كانت في مكتبة دير مار اشعيا قرب برمانا وهي التي عني بجمعها وتنظيمها الاباتي عمنوئيل البعداتي رئيس الرهبانية الانطونية . فاحب القس غسطين ان ينشر نبذة وطنيه القس يوسف اسكندر في اخر ديوانه المطبوع ، لما فيها من الفوائد التاريخية عن كثير من اسر بلدته وغيرها . وهذه النبذة طويلة خلاصتها ان معظم اسر قرطبا والعاقورة المارونية وعائلات الاسر المتفرعة منها في القرى اللبنانية كلها عربية الاصل .

على ان القس غسطين لم ينشر النبذة المنقولة طبقاً لاصلها كما يفعل علماء التاريخ المدققون ، بل تصرّف بها تصرفاً لا يقره عليه اهل التحقيق كما يظهر

للباحث البصير . والغريب ان انساب الاسر الواردة في هـذه النبذة قد اثبتها بصورة جـازمة اكيدة ليس في حلقات سلاسلها حلقة ناقصة او مشكوك في صحتها . فكأنه اخذ سلاسل انساب العرب من ايام جاهليتهم كما هي واردة في كتب الانساب العربية وسردها الى ايامنا هذه ناسباً كل اسرة من الاسر المارونية التي ذكرها الى القبيلة العربية التي اختارها ، وربما نسب عشر اسر مارونية او اكثر الى جد عربي واحد ، مع ما هنالك من مئات السنين التي تفصل زماننا عن زمان الجاهلية مما لا يبلغ اليـه تحقيق نسب العشائر والاسر العربية العريقة نفسها .

وقد عدّد القس غسطين كثيرًا من المراجع الوارد فيها ذكر واضع النبذة، ومنها ما كتبه عنه المطران بطرس شبلي والخوري ابرهيم حرفوش وهما من كبار المحققين واعة المورخين . ولكن لم نرَ احدًا ذكر ان القس يوسف اسكندر وضع تاريخًا في اصل الاسر اللبنانية . هذا وان القس مبارك صقر الذي يقول القس غسطين انه هو الذي استنسخه النبذة عن اصلها قد كان من اصدقائنا ، وبين محفوظاتنا وثائق دوّن فيها بخط يده مختلف الاخبار المروية عن اصل اسرته « بيت صقر » ودفعها الينا قبل وفاته لنرى رأينا فيها وبقيت عندنا . فراجعنا هذه المعلومات ولم نجد فيها ذكرًا للاب اسكندر ونبذته ، وليس فيها شيء ينطبق على ما ورد في النبذة المزعومـة عن اصل اسرة بيت صقر . وكيف الوصول الى معرفة حقيقة الامر والمخطوطة على قول القس غسطين ضاعت او غير موجودة ، والاباتي عمنوئيل البعبداتي والقس مبارك وغيرهما ممن كانوا يعرفون محتويات مكتبة دير مار اشعيا قبل تشتت مخطوطاتها في الحرب الكبرى الاولى قد توفوا ؟ وهـذا لعمري يكفي لمعرفة قيمة هذه النبذة التي استند صاحب كتاب « اصدق ما كان . . . » الى رواياته عن بعض الاسر المارونية ، بحجة ان ناشرها كما قال لنا «من علماء الموارنة مهما كان الامر» (انظر النبذة المطبوعة صفحة ١٠٢ — ١٥٦).

اما القس يوسف اسكندر الذي تنسب اليه النبذة فقد ولد في قرطبـا وأرسل الى رومة العظمى سنة ١٦٧٠م وعمره وقتئذٍ ١٢ سنة مع يعقوب عواد (الذي صار فيما بعد بطريركًا) وعاد الى بلاده بعد ان اتم دروسه العالية سنة

١٦٨٣ ورقاه البطريرك الدويهي في ٢٩ حزيران ١٦٨٧ الى درجة الكهنوت على مذبح كنيسة سيدة قنوبين ، وجعله كاتباً لاسراره لما تحلى به من اين المريكة وانه كما وصفه مثال الطاعة . وفي ٢٠ ايار ١٦٩٣ اصيب بمرض الطاعون وتوفي بدير قنوبين الكرسي البطريركي. ومن اثاره الباقية بين المحفوظات في خزائن بكركي يستدل على مبلغ علمه وتضلعه من اللغات. لكن ليس هناك اثر البتة للنبذة التاريخية التي نشرها له القس غسطين في ديوانه ، ولا ذكر لمخطوطة او وثيقة بموضوع تاريخي كهذا (انظر مجلة المنارة السنة ٣ : ٥٨٤ و ٦ : ٨٠٨) .

٣ً – البطريرك مخايل فاضل

ولد مخايل فاضل في بيروت حوالى ١٧١٠ م على الاصح، وارسل الى رومة العظمى ، حيث تلقى العلوم والمعارف وعاد الى الشرق في ٢٤ حزيران ١٧٤٠، وفي ٢١ تموز من هذه السنة رسمه البطريرك يوسف ضرغام الخازن كاهناً وارسله الى عكا . فأنشأ في هذه المدينة كنيسة ومركزاً لائقاً لطائفته التي سعى بجمع شتاتها بعد التعب والجهد . وقد رقاه المطران جبرايل عواد (١٧٥٣ م) الى رتبة برديوط ، ولكن السلطة اعادته الى بيروت حيث شرع بتجديد كنيستها المؤسسة على اسم القديس جرجس وذلك سنة ١٧٥٥ . ثم اقيم رئيساً على دير حراش سنة ١٧٥٩ فتولى تدبير رهبانه وراهباته بكل غيرة وحكمة مدة طويلة . وفي ١١ حزيران ١٧٦٢ رقاه البطريرك طوبيا الخازن الى المقام الاسقفي، وقد صادف كثيراً من المتاعب لما وقع من الخلاف بينه وبين الاساقفة بشأن الولاية على ابرشية بيروت مما لا محل لذكره . واخيراً انتخب بطريركاً على الموارنة في ١٠ ايلول ١٧٩٣ ولم يمضِ عليه زمن طويل حتى نزل به القضاء المحتوم في ١٧ ايار ١٧٩٥ ودفن في دير حراش بكسروان (انظر مجلة المنارة السنة ٧ : ٢٥٨).

وكان البطريرك فاضل من اكابر العلماء، وتنسب اليه مجموعة تاريخية تعرف باسم « كمال الاشتمال في تاريخ الاماكن والعيال » وقد جرى على الالسنة ذكر هذه المخطوطة وتساءل اهل البحث عما اذا كان وجودها حقيقة او رواية وهمية.

قالوا ان هذا التاريخ كان في خزائن المحفوظات في بكركي وان قد كانت نسخة منه في دير مار اشعيا للرهبان الانطونيين . وذكر تلميذنا القديم الاستاذ اميل حبشي تاريخ فاضل في كتابه « جهاد لبنان » ص٣٤٨ قال انه اعتمد في روايته عن اصل اسرته « بيت الاشقر » على اوراق دير مار اشعيا وعلى تاريخ فاضل المذكور . وسألناه عن هذا التاريخ فاخبرنا ان والده انشأ نبذة عن اسرته نقلاً عن « كتاب الاشتمال » صفحة ١١٨ واراد الاستاذ حبشي التثبت من صحة الرواية فبحث عن الكتاب في دير حراش حيث كان مؤلفه ، وفي خزائن البطريركية حيث نقلت مخطوطات هذا الدير فلم يجد له اثراً ، حتى قال لنا زميلنا الاستاذ عيسى المطوف «ان هذا الكتاب : كالغول والعنقاء والخل الوفي».

وفيما نحن نبحث ونتقب للوقوف على حقيقة هذا الكتاب ، اذا بالقس غسطين يطلع علينا بنبذته التي ذكرنا امرها ، وفيها نتحقق لنا بصورة لا تقبل الرد « ان كتاب الاشتمال الذي وضعه البطريرك مخايل فاضل هو نسخة طبق الاصل نقلها عن نبذة القس يوسف اسكندر ، وان هذا البطريرك المشهور انما هو نفسه الخوري مخايل القرطباوي خادم بيروت » على ان الذي ذكره الثقات « ان هذا الكاهن من قرطبا اصلاً ، وقد ارسل الى رومية ١٦٩١ مع بطرس مبارك الشهير . وبعد ان درس الفلسفة واللاهوت رجع الى بلاده سنة ١٧٠٤ وصار كاهناً على رعية بيروت ، وحضر المجمع اللبناني ١٧٣٦ » وهذا كل ما عُرف عنه . اما البطريرك فاضل الذي ذكرنا ترجمته نقلاً عن اصدق المراجع الخطية والمطبوعة فهو اشهر من ان يعرّف ، ولدينا ايضاً سلاسل انساب اسر بيروت المارونية القديمة وبينها اسرة البطريرك فاضل ، نقلناها في اواخر القرن الماضي عن الشيوخ العارفين الخوري يوحنا دياب العينبلي خادم بيروت بخط يده. ونقلنا ايضاً وثيقة مهمة عن محفوظات بكركي لم تنشر وهي لواضعها الخوري جرجس فاضل ابن شقيق البطريرك الذي كان كما قال كاتباً لاسرار عمه وشاهد عيان لكل ما جرياته ، ولا سيما مدة وجوده بدير حراش الى حين وفاته ، مما يحقق ان الخوري مخايل فاضل البيروتي الماتوري الاصل غير الخوري مخايل القرطباوي خادم بيروت .

لكن القس غسطين لغاية في النفس خلط الاثنين معاً فغيّر وحرّف ووصل

بينهما بسلسلة انسابه العربية المزعومة ، وخلق منهما شخصاً عجيباً بلغ من العمر اكثر من ١١٥ سنة « على حسابه » وجعل يوسف اسكندر ومخايل فاضل ومخايل القرطباوي من بيت السخني اسرته التي انشأ لها فروعاً كثيرة منسقة الانساب ، وكلها « عربية تنتسب الى السخنة في باديـة الشام وطن جدوده وبلدة نسيبه البدوي احمـد عبد العزيز جاد الله الخ ... من بني مقابل الذي شرّف قرطبا سنة ١٩٣٦ للتعرف على انسبائه في لبنان بيت السخن الذين اصلح القس سالم نسبهم وصحح عمادهم باسم السخني » وعلى الجملة فانه فتح فتحاً مبيناً يقلب اوضاعنا ويغير وجه تاريخنا ويهدم كل ما بناه علماؤنا هو وصاحب كتاب « اصدق ما كان ... » فكلاهما يتنازعان مارونيتنا : الاول بالاصل العربي والثاني بالاصل اليعقوبي ، كأن الموارنة بلا اصل !!!

٤ – البطريرك بولس مسعد

كان النسّابة البطريرك بولس مسعد اقدر اهل عصره في التـاريخ وخاصةً تاريخ الاسر ، وله مؤلفات مشهورة في تاريخ طائفته المارونية والدفاع عن صحة معتقدها الديني ، اهمها كتاب «الدرّ المنظوم» وكان خبيراً بالاصول والانساب ، ويروي الناس عنه اقوالاً مأثورة بنى عليها كثيرون تواريخ اسرهم. وذكروا انه وضع تاريخاً للاسر لاعتقادهم بسعة اطلاعه وغزارة علمه ، وشاع ذلك عنه وذاع حتى اكّد بعضهم وجود هذا التاريخ عند اقاربه الا انه لم يظهر شيء منه حتى الآن ، وقد مضى على وفاته اكثر من ستين سنة . قيـل ان السبب في عدم نشر تاريخه انما كان اضطراره الى قول الحقيقة في اصل الاسر التي حازت نباهة الذكر واصلها خامل . والذي نظنه ان السبب الذي منعه عن نشر معلوماتـه التاريخية عن اصل الاسر انما هو ما عُرف به هذا البطريرك من التحفظ والحذر لما في تحقيق اصول الاسر اللبنانية من الصعوبات التي اشرنا اليها في تاريخنا ، فخاف ان ينشر معلوماته ويعرّض نفسه للنقد الذي كان يتحاشاه ويحاذره .

ويا ليته نشر هذه المعلومات على علاتها وذكر مصادرها المرويّة، اذن لكان له من ذلك عذر كاتب ولكان ادّى للتاريخ والوطن والطائفة اكبر خدمة . لانه كان في عصره اكبر علمائنا بهذا الفن ، ضمّ صدره مجموعة واسعة من اخبار

الموارنة واسرهم وقد كان اقرب منا عهداً الى جدودنا الماضين من القلة الثقات، واوسع اطلاعاً على تقاليد القوم ورواياتهم التي تكيفت وتطورت مع الايام حتى كادت تبعد عن اصلها، واصبح الحصول عليها والبحث في تحقيقها ومصادرها امراً صعب المنال . ويظهر انه كان كما يتبين من كتاباته شديد الحذر، ولعله اراد الاحتفاظ بما جمعه من اخبار الاسر فضاع وتشتت بعد وفاته .

وروى لنا احدهم : ان البطريرك كان عنده في بكركي راهب (لعله القس اسبيريدون الغرموني الانطوني) فلما توفي البطريرك، وكانت الاوراق التاريخية تحت يده مجموعة كراريس . فكان الناس يتهافتون عليه، وكان كل من يطلب اليه شيئاً عن تاريخ اسرته فيسرق الاوراق التي فيها المعلومات المطلوبة ويدفعها اليه . وقيل ان المعلم رشيد الشرتوني عثر على اوراق البطرك بولس ولم يتهيأ له نشرها فاخذها ولده الذي ابتاعها منه سلوم المكرزل في اميركا . ويا ليت هذه الرواية صحيحة اذاً لكانت نشرت الاوراق حالاً في جريدة الهدى .

وبحثت بنفسي في خزائن بكركي وامين المخطوطات فيها اليوم صديقنا العالم المحقق الخورسقف ميخائيل الرجي، فرأيت اوراقاً منثورة بخط البطريرك وفيها تنف عن الانساب واصل الاسر . وقد جمع هذه الاوراق نسيبنا الخوري ابرهيم حرفوش الذي كان امين المخطوطات زماناً، وقد طالعتها فوجدت فيها فوائد لا بأس بها . وهناك مذكرات او يوميات البطريرك التي كان يدون فيها يومياً، حوادثه الجارية وتنقلاته عند ذهابه الى مصيفه او رجوعه الى مشتاه مؤرخاً اليوم بل الساعة، وذكر رحلته الى اوربا والاستانة . وكل هذه المذكرات موجزة دقيقة كأنه كان يريد التبسط بها . وهناك شذرات كثيرة مظانها مسودات كتابه « الدر المنظوم » الذي قيل انه كان يريد تجديد طبعه بعد تجريده من المطاعن والتهكم، فمات ولم يخرج هذا الفكر الى حيز العمل . وبين هذه الاوراق معلومات تاريخية مرسلة من بعضهم اليه والارجح انها أرسلت بناء على طلبه . ولا ندري اذا كان قد نقل هذه الرسائل والوريقات المنثورة وبيض مسوداتها بدفاتر، او انها بقيت على ما هي متفرقة فضاع اكثرها .

واهم ما بقي من هذه الاوراق مجموعة مكتوب عليها عنوانها « تروتيفون البطريرك بولس مسعد » بخط المطران بطرس شبلي، وهو عنوان لكتاب كان

قد بدأ به البطريرك ليجعله تكملة لتاريخ الدويهي ، يذكر فيه موجز تاريخ القرن الثامن عشر . وقد جمع له شتات الاخبار والمعلومات ودوّن معظمها على اوراق متفرقة بين محفوظاته التي سلمت بعدما اصاب القسم المتعلق منها بتاريخ الاسر من نكبة الضياع والتمزيق مما هو آفة التاريخ ونكبة المؤرخين . ولم يسلم من مجموعها الّا كراس يحتوي اخبار الثلث الاول من القرن ١٨ وهو يتضمن تاريخ الحوادث من سنة ١٧٠٠ التي انتهى فيها تقريباً تاريخ الدويهي الى غاية سنة ١٧٣٧ اي بعد نهاية المجمع اللبناني . وقد حافظ المطران شبلي فقيد العلم على النسخة الاصلية المكتوبة بخط مسعد في ٤٦ صفحة وعمل لها العنوان المشار اليه ، وهي محفوظة في جارور آثار هذا البطريرك التاريخية عن الاسر وغيرها . ولم يقيض له اتمام عمله هذا او تبييض مسوداته التي بقي منها الشذرات التي نسخناها نحن عن اصلها بكل ضبط وتدقيق ، وهي اشبه بدرر منثورة يجب ان تجمع في سلك . وقد نقلناها كما كتبها البطريرك بخطه الذي هو اشبه بالمعميات ، وفيها الكثير من المفاخر والعبَر التاريخية التي لم يرَ بعضها النور حتى اليوم .

بقي علينا ان نقول كلمة موجزة في ترجمة هذا البطريرك : فهو من اسرة مارونية عريقة ولد في عشقوت كسروان في اوائل شباط سنة ١٨٠٦ وتلقى علومه الاولى في مدارس لبنان المارونية : الرومية وعينطورة وعين ورقة حيث ظهرت نجابته وتفوقه ، فارسله البطريرك يوسف حبيش سنة ١٨٢٦ الى رومية حيث تلقى في المدرسة المارونية العلوم العالية ونال منها القسط الوافر . وعاد سنة ١٨٣٠ الى وطنه مكتفياً بما حصله لسبب انحراف طرأ على صحته ، فتلقاه البطريرك بالترحاب ورقاه في ١٣ حزيران من هذه السنة الى درجة الكهنوت وعينه كاتباً لاسراره . وفي ٢٨ آذار ١٨٤١ رفعه الى درجة الاسقفية وجعله مطران شرف على طرسوس ونائباً روحياً له ، فاحسن القيام بالمهام التي عُهد بها اليه في عهد البطريركين الحبيشي والخازني . وتوفي البطريرك يوسف الخازن فانتخبه الاساقفة خلفاً له في ١٢ ت٢ ١٨٥٤ وتولى البطريرك بولس مسعد تدبير شؤون طائفته بحكمة وغيرة . وعقد مجمع اللويزة (١٨٥٦) فافرغ فيه كنوز معارفه طبقاً لمبادئ المجمع اللبناني . ورقى الى الاسقفية ١٥ مطراناً وانشأ للبطريركية

مكتبة عامرة بالكتب النفيسة، وجمع شتات الهدايات الرسولية ورسائل الملوك والحكام الى غير ذلك من الانشاءات والاصلاحات محافظاً على عزة المقام البطريركي وكرامته . وزار رومة العظمى وباريس والاستانة سنة ١٨٦٧ ، وقابل البابا بيوس التاسع ونابليون الثالث امبراطور فرنسة والسلطان عبد العزيز، ولقي كل اكرام واعتبار . وكانت وفاته في ١٨ نيسان ١٨٩٠ في بكركي وبعد حفلة الجناز نقل الى عشقوت مسقط رأسه ودفن في الضريح المعد له في كنيسة مار بطرس .

والآن لا يسعنا الا ان نشيد بفضله على التاريخ وعنايته في جمع محفوظات الكرسي البطريركي وصيانتها ، فقد دوّن الكثير منها بخط يده ، وامر بجمعها وضمها الى ما جمعه البطريرك الدويهي والبطريرك يوسف اسطفان من السجلات والوثائق والآثار التاريخية التي تخلد لهم الذكر الجميد ، وقد اصبحت مراجع صحيحة لاهل البحث وطلّاب الحقيقة . ولا بد لنا ان نذكر : ان الخوري منصور الحدثوني الذي نشر تاريخاً مطبوعاً باسم « المقاطعة الكسروانية » وفيه فوائد كثيرة تتعلق بتاريخ لبنان ولاسيما كسروان ، قد صرح في كتابه هذا انه اخذ عن البطريرك مسعد اكثر معلوماته عن اصل الاسر وغير ذلك من الحوادث والاخبار . وهكذا قال في النبذة التي وضعها عن «دلبتا وتاريخها» وهي التي نشرها صديقنا الخوري بطرس روفائيل في تاريخه الذي وضعه عن هذه البلدة ونشره في « المشرق » لكي يكون مثالاً لمن يريد ان ينشئ تاريخاً . وعلى الجملة فان هذا البطريرك كان في ايامه اكبر مرجع في تحقيق الامور التاريخية وحل مشاكلها الصعبة ولاسيما مشكلة اصل الاسر وانسابها .

٥ الخوري يوسف سعاده الحصاراني

وبينما كنا نبحث عن المخطوطات بلغنا ان في حصارات من بلاد جبيل مخطوطة تاريخية عند كاهن ماروني يدعى الخوري يوسف سعاده الملقب بالزناتي، وان في هذه المخطوطة تواريخ مختلفة منها تاريخ الاسر التي خرجت من بشعله (وطن جدودنا القدماء) فكاتبنا صديقاً لنا يدعى مازون صفير كان يتردد الى تلك الجهات لبيع بزر القز بان ينقل لنا عن المخطوطة والاصح عن صاحب

المخطوطة تاريخ اسر بشعله ففعل . وعلى سبيل المثال نذكر روايته عن جدنا ابي رزق البشعلاني قال ما ملخصه : « ان الجد هو صهيون من قبيلة بني غسان ملوك الشام .. اتى الى بشعله من كفرطابو من بلاد عكار سنة ١٣٠٠م فولد له في بشعله رزق الذي ولد له يونس ومبارك . ويونس اولد خمسة اولاد اكبرهم رزق جد عائلة رزق ، ويونس قتل في طرابلس شهيدًا . ومبارك هو جد بيت مبارك والخوري والسعد .. »

لا ندري ما هي المصادر التي اخذ عنها صاحب المخطوطة هذه الرواية التي تناقلها بعض المؤرخين دون بحث . وقد عرفنا انه توفي منذ سنوات واتصلت المخطوطة بانسبائه ، وانه كان يروي روايات كثيرة عن الاسر وتاريخها . وكان يأتيه طالب المعلومات عن تاريخ اسرته ، فيدخل غرفته ثم يخرج اليه ويعطيه مطلوبه دون ان يدعه يرى المخطوطة ، وهكذا كان يفعل ورثته من بعده . ولذلك فان العارفين لم يطلعوا عليها لتعرف قيمتها التاريخية ، والذي ظهر لنا ان صاحبها خلط الصحيح بالباطل . وتبين لنا من الروايات المنقولة عنه انه غير ثقة ، ولا سند لاخباره حتى ان بعضها لا يمكن تصديقه لبعد العهد وغرابة الحوادث ، وقد رأيناه يخطئ في ايراد الاخبار المعروفة التي ذكرها الدويهي . فاذا كان هذا شأنه في ذكر الاحداث القريبة العهد فكيف يصح الاعتماد عليه في الامور القديمة دون وثيقة ولا مرجع سوى الاقاويل التي لا طائل تحتها .

٦ الخوري يوسف توما الدناري

هو المعروف بخوري بلّا وهي قرية غير بعيدة عن حدث الجبة ، يدعي ان عنده مخطوطة لا تبعد حكايتها عن حكاية زميله الزناتي . فانه لم يدع احدًا يطلع عليها بل كان يجيب السائل عن تاريخ اسرته بعد ان يدخل غرفته ويأتيه بمطلوبه كما كان يفعل الزناتي . وللخوري يوسف هذا ولدان كاهنان مثله تعرفنا اليهما وسمعنا ما يرويان من اخبار الاسر المارونية التي يقولون انها مأخوذة عن مخطوطة والدهما . واعتقد ان روايات هذا التاريخ كروايات تاريخ الزناتي ، وقيمتها التاريخية لا تختلف عن قيمة تلك . وقد نقل عن هذه المخطوطة صديقنا الباحثة الاب اغناطيوس طنوس الراهب اللبناني كثيرًا من محتوياتها ، فرأينا

فيها الغث والسمين، مما يدعو الى الحيرة لغرابة الروايات والى الشك بصحتها وقلة الثقة بها لعدم ذكر المراجع . وقد توفي الخوري يوسف العنداري في اواسط ك ١ ١٩٥١

انتهينا الآن من المخطوطات الست المنسوبة الستة من المؤرخين، وقد كتبنا ما عرفناه من امرهم بعد البحث والتحقيق ، ولا غاية لنا الا قول الحق وتجنب الباطل . ولقائل ان يقول : « انك شديد في احكامك التاريخية » فنجيب ان الحقيقة يجب ان تقال حتى ولو جرحت . وبعد ان رأينا الفوضى التي يتخبط بها القوم واستسلامهم الى الاساطير والاوهام من جهة تاريخ اسرهم ، لا يمكننا ان نقبل ما يقدمونه من المعاذير اذ يقولون : « ان ليس عندنا غير هذه الاخبار فنتمسك بها على علاتها الى ان نجد اصح منها » فالحليق بنا ان نكتفي بالقليل الصادق الثابت من تواريخنا ولو كانت قصيرة المدى ، فذلك خير لنا من انتحال الاخبار المختلقة والروايات المصنوعة او المشكوك بصحتها ولو كانت طويلة . ويكفينا ان يكون لنا تاريخ حقيقي منذ مائة سنة من ان يكون تاريخنا منذ مئات وآلاف السنين وهو باطل من اساسه ومبني على حكايات مزورة وتقاليد يدعيها كثيرون .

وحري بنا وقد بلغت الحالة الى ما لا يطاق من الفوضى ، ان نعمل على ازالة الاوهام لا المعاونة على تقريرها ونشرها وتدوينها بصورة مبهرجة طلية تغر السذج ، وربما اضلت العلماء بمظهرها الجذاب وطريقتها العلمية . فيسود الوهم وتكثر الاقاصيص ويصبح تاريخنا مجموعة خرافات واساطير ترسخ في الاذهان ويصعب نزعها شأن كل بدعة وضلال . وكيف تغرنا هذه الروايات السخيفة التي يتناقلها بعض مدعي المعرفة عن مؤرخين ليسوا من اهل التحقيق بحيث لا يليق ان تتخذ اقوالهم حجة لتقرير حقائق عويصة عجز عن تحقيقها اكابر العلماء . لان علم التاريخ لا تكفيه المعرفة والمنزلة بل يلزمه الخبرة وسعة الاطلاع ورسوخ القدم في هذا الفن والتنزه عن الغايات والتجرد عن الاغراض والمفاخرة بالحسب والنسب (راجع كتابنا « تاريخ بشعله وصليا » صفحة ٤٤٤). والآن نذكر الذين شرعوا في وضع قاموس للاسر اللبنانية ولم يتهيأ لهم اتمامه والذين اتموه ولم ينشروه وهم الآتي ذكرهم :

١ – الاباتي عمنوئيل عبيد البعبداتي

انشأ تاريخاً يبتدئ من السنة ١٨٦٠ الى ما قبل وفاته ١٩٣٢ يقع في نحو عشر مجلدات كل مجلد الف صفحة ، ضمنه كل ما جرى في زمانه من الحوادث والاخبار ولا سيما المتعلقة بطائفته المارونية ورهبانيته الانطونية ، وكان يكتبه بخط يده كمذكرات يومية . ثم وضع قاموساً جعل قسماً منه للاسر المارونية اللبنانية وقسماً للقرى التي يسكنها الموارنة . وحدثني واحد من رهبانيته انه استعان على تأليف هذا القاموس بمعلومات البطريرك بولس مسعد المنقولة بواسطة القس اسبيريدون المرموني الانطوني الذي كان في الكرسي البطريركي . وقد ارسل البعبداتي هذه المذكرات التاريخية وقاموس الاسر والقرى الى الاباتي لويس عبيد رئيس دير الرهبان الانطونيين في رومية ليتولى نشرها هناك فلم يتمكن من ذلك ، فأعادها الى مؤلفها الذي عهد الى المدبر يوسف الشدياق لينشرها بعد ان اصبح هو عاجزاً عن ذلك بسبب مرض في عينيه افقده البصر ، وسوف ترى فيما يأتي ما كان من امر هذين الكتابين .

اما الاب عمنوئيل فقد ولد في بعبدات سنة ١٨٤٧ وانتخب مدبراً ١٨٨٣ ورئيساً عاماً للرهبانية الانطونية ١٩٠١ ونزل به القضاء المحتوم في ١٤ ك٢ ١٩٣٢ وقد كان في ادوار حياته الرهبانية كلها مثالاً للنسك والتجرد وحفظ القانون حتى اصبح المثل الاعلى للغيرة والاخلاص والنزاهة ، وعُدَّ من اكبر المصلحين في الرهبانية مع ما قام في سبيله من العقبات . واشتهر بالفضل والعلم والزهد بحيث انه كان قدوة للرؤوسين والرؤساء بالطاعة والحكمة وحسن التدبير ، فازهرت الرهبانية في عهده بالنهضة والتهذيب الرهباني . وكان مجلسه مهيباً وقوراً لا يخل جليسه من احاديثه الطلية ، لما تبطنته من فوائد تاريخية وطنية وما حوته من درر الاقوال ونجع العبر . ونشر كتابه « تاريخ الرهبانية الانطونية » فكان اسبق المؤرخين في الرهبانية المارونية ، فضلاً عن مذكراته التي ذكرناها . وفوق ذلك فان هذا الشيخ الجليل قد كان تاريخاً حياً وشاهد عيان لما ذكره في تآليفه من الحوادث .

٣ – المدبر يوسف الشدياق

هو من اسرة الشدياق المشهورة ، ولد في حدث بيروت ، ودرس بمدرسة المزار في غزير وفي مدرسة قرنة شهوان ومدرسة الحكمة . وفي ١٨٨٣ دخل الرهبانية الانطونية فدرس الفلسفة واللاهوت في الدير وسيم كاهناً ١٨٨٩ ودرس الفقه على الاستاذين انطون صالح بعبدا وشاكر افرام البستاني . وتولى ادارة مدرسة مار اشعيا وكتابة اسرار الرئاسة العامة ، وانتخب مدبرًا وعين وكيلًا عاماً . ثم اسس مدرسة مار يوسف قرب دير مار انطونيوس بعبدا ، وانشأ في هذا الدير مجلة « كوكب البرية » والمطبعة (١٩١١ – ١٩١٦) وكانت وفاته في ٢٨ نيسان ١٩٤١ وكان كاتباً ضليعاً له بعض آثار ادبية ، وقد عهد اليه الاباتي عمنوئيل البعبداتي نشر اثاره التي ذكرناها بعد عجزه وفقد بصره . فاختصر المذكرات التي تقع في عشر مجلدات اذ اهمل ذكر المناشير الحربية والفرمانات السلطانية وغير ذلك مما هو منشور ثم كلف الاستاذ الياس سلهب فنقل هذا المختصر بخطه الجميل ليكون معدًّا للطبع .

ثم عمد الشدياق الى الكتاب الذي ذكرنا ان البعبداتي وضعه لتاريخ الاسر والقرى المارونية بلبنان ، وتبسط فيه وزاد عليه ، آخذًا معلوماته عن بعض المصادر وأهمها روايات عن اصل الاسر المارونية كما نقلها له راهب انطوني اسمه الاخ مخايل التنوري ، فكلفه جمع هذه الروايات التي تلقاها من اهالي القرى التي كان يزورها لاشغال تتعلق بالرهبانية . وبينما الشدياق مكب على الجمع والتلخيص نزل به مرض شديد الزمه الانقطاع عن العمل ثم لم يلبث ان وافاه الاجل ، ولم يتمكن من نشر هذين المؤلفين . وبعد وفاته نقلت هذه المخطوطات المجموعة الى دير مار روكز مركز الرئاسة العامة . ثم عني صديقنا المفضال الاب اشعيا الاسمر الذي هو اليوم رئيس الرهبانية العام بنقلها الى دير مار اشعيا برمانا حيث تحفظ مع المخطوطات في المكتبة . وقد زرنا الدير (١٩٤٥) ومعنا زميلنا ورفيقنا في جهادنا التاريخي الاب اغناطيوس طنوس اللبناني ، واطلعنا على المجموعات المشار اليها كلها ، غير ان النسخة التي استنسخها العمري عن البطرك يوسف مسعد غير موجودة بين هذه الآثار الثمينة التي اوصينا بصيانتها وقد وقفنا

على كثير من محتويات محفوظات مكتبة الدير ، رحم الله من انشأها وساعد في جمعها وصونها من الضياع . هذا واننا قد راجعنا المصادر التي اخذ عنها البشدياق معلوماته ونقلنا عنها ما يهمنا منها بعد تحقيقها .

٣ – المونسنيور خليل الحويس

كان المونسنيور الحويس شديد الميل الى التاريخ مولعاً بالاثار ، وقد جمع كثيراً منها بين محفوظاته ، فألف مجموعة تاريخية للاسر المارونية مرتبة على حروف المعجم . وقد عثرنا على دفاتره المكتوبة بخط يده عند صديقنا الاديب ابن شقيقه الاستاذ جورج الحويس ، فنقلنا عنها بعض ما ينقصنا من المعلومات عن اصل الاسر . ويظهر ان المونسنيور عني بجمع اخبار الاسر بنفسه ونقلها بخط يده عن تقاليد القوم ومحفوظاتهم : وهي مجموعة « رؤوس اقلام » مما يدل على انه كان ينوي ان يخرج للناس تاريخاً لاسر ابرشية بيروت المارونية بما عرف به من بلاغة في الكلام وتحقيق في الاخبار . لكن الداء نزل به فاوقف ذلك القلب الكبير عن الفكر ، والقلم عن الجري في مضمار الكتابة ، وقد كان من فرسانها المجلين ، فقضى مأسوفاً على فضله وعلمه .

واسرة الحويس من الاسر المارونية العريقة ، نشأت في قرية حاقل من بلاد جبيل منشأ كثير من البيوتات اللبنانية الوجيهة ، وقد رحلت منذ ثلاثة قرون الى المتن لائذة بالامراء اللمعيين حكام البلاد ، ثم انتقلت بعد زمان الى بلدة برج البراجنة . وقد نشأ منها رجال زعامة وفكر توارثوا المجد كابراً عن كابر بما اتوه من جلائل الاعمال ، ومن هذه الاسرة نبغ المونسنيور الحويس الذي ذكرنا اثره التاريخي فضلاً عما له من الآثار الادبية . ولد في برج البراجنة ١٨٧٢ وتربى على الفضيلة والاخلاق العالية ، وتلقى العلوم بمدرسة الحكمة التي انشأها (١٨٧٥) فقيد العلم والوطن المطران يوسف الدبس ، وقد اعجب بذكائه واهليته فرقاه الى درجة الكهنوت المقدسة . وتولى الحويس وظائف عديدة ومهمات خطيرة ، توفاها حقها وقام بها خير قيام بما دلّ على حصافة عقله واصالة رأيه وعلو همته وحسن تدبيره ، وقد ادى للوطن وللطائفة خدمات جليلة تذكر فتشكر كما قال في رثائه البطريرك الحويك ، وكان اعرف الناس باقدار الرجال

والقيم الانسانية . وكانت وفاته في ١١ كانون الاول سنة ١٩٣١ رحمه الله .

٤ – الاستاذ عيسى المطوف

من اشهر المورخين المحدثين صديقنا المورخ الكبير الاستاذ عيسى اسكندر المطوف . ولد في قرية كفرعقاب من قضاء المتن في ١١ نيسان سنة ١٨٦٩ م وهو عالم عامل خدم الوطن والثقافة خدماً جليلة بتعليم النشء ووضع التآليف العلمية المفيدة والمبتكرة . واشتغل بتاريخ الاسر فنشر بالطبع سنة ١٩٠٨ كتابه « دواني القطوف في تاريخ بني المطوف » ذكر في حواشيه ، فضلاً عن تاريخ اسرته ، موجز ما اتصل به من المعلومات عن تاريخ كثير من الاسر اللبنانية والشرقية . وصرف عمره في جمع وتأليف موسوعة تاريخية في الاسر تقع في نحو ١٤ مجلداً باسم « الاخبار المدونة والمروية في تاريخ الاسر الشرقية » لا يزال حتى الان مخطوطاً ، ولم نطلع عليه لكننا نعرف انه يتضمن كل ما اتصل به من تواريخ الاسر المارونية بحيث ان كتابه يعد اكبر موسوعة لتاريخ الاسر كما يظهر مما نشره في المجلات المهمة . هذا وله من الاثار التاريخية كتاب « تاريخ زحلة » وكتاب « تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني » وهو مصور و « تاريخ بني اليازجي » ومجلته « الآثار » في عدة سنوات . وله مقالات تاريخية وعلمية شعراً ونثراً نشرت في المجلات . وله كتب ومجموعات مختلفة في فنون العلم والادب والتاريخ لا تزال مخطوطة ، وكلها تدل على ما بذله هذا العالم الجبار من المجهود والبحث والتنقيب خصوصاً بجمعه طائفة كبيرة من المخطوطات النادرة التي اكتشفها واحرزها . وحسبه هذه الاثار القيمة التي وضعها او جمعها ولم يتيسر له ان ينشرها لكساد بضاعة العلم ولا سيما التاريخ ، وتشنى على انجاله النجباء الذين هم امثال ذلك الاسد ، وقد انحفوا العلم بنتائج افكارهم وثمار نبوغهم في الشعر والادب ، ان يخرجوا للناس بالطبع اثار والدهم ، ولاسيما موسوعته في تاريخ الأسر تعزيزاً لهذا الفن الذي نحن بحاجة ماسة اليه . ويا حبذا لو تنشر في حياته للاشراف عليها والاستعانة به على تصحيحها ، اطال الله عزيز بقائه .